

محاضرة النقد وقضية الإعجاز

تمهيد:

لقي القرآن الكريم، منذ نزوله، اهتماما بالغا تعبر عنه كثرة الدراسات التي دارت حوله وتعددها، فإضافة إلى التفاسير والشروحات، تناول العلماء والمختصون فيه وجوه بيانه وأسرار تراكيبه وألفاظه وأفكاره ومعانيه وغيرها مما يعد من صميم الإعجاز القرآني، ومما كان له أثره الواضح على البلاغة والنقد العربيين، وقد كان للنحويين واللغويين نصيب كبير من تلك الدراسات، فأبرز الآراء ظهرت في ثنايا كتبهم من مثل كتاب (معاني القرآن) للفراء، وغيره ممن طبعت كتبهم بالعنوان ذاته أمثال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو علي الفارسي وأبو جعفر النحاس.

أبرز المؤلفات في الإعجاز القرآني:

وبعدهم توسعت دائرة الاهتمام بالكتاب المكرم فظهرت كتب قيمة وتآليف مميزة فيه ككتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وكتاب الجاحظ (نظم القرآن)، وكتابي (غريب القرآن) و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، و(كتابي دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني، توجهها الرغبة في الوقوف على فنون التعبير القرآني وأسلوبه المعجز ومعانيه الفريدة وعلى خصائص النظم فيه.

وقد تزامنت بداية الدراسات القرآنية، مع أواخر القرن الثاني وخلال القرن الثالث، مع حركة التأليف النقدية التي نشطت نشاطا لافتا للنظر بظهور أدباء ونقاد ومفكرين على درجة من الوعي والتحمس للثقافة العربية أمثال: أبو عثمان الجاحظ صاحب (البيان والتبيين)، وابن سلام الجمحي (طبقات فحول الشعراء)، وابن قتيبة واضع (الشعر

والشعراء)، والأمدي (ت271ه) صاحب (الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحثري)، والقاضي الجرجاني (ت292ه) صاحب (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، وغيرهم.

اتجاهات النقد في إعجاز القرآن:

مذهب الصرفة:

أول من قال من العلماء بالصرفة إبراهيم بن سيار النظام حيث ذهب إلى ان الله عز وجل علاه صرف الناس عن معارضة القرآن الكريم، ولم يمنحهم القوة والقدرة والاستطاعة لمثل هذا العمل فقدرة الانسان محدودة، وقدرة الله تعالى لا حدود لها يقول النظام: "إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هوك كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله صرفهم وسلب علومهم به".

مذهب النظم:

ولم تخل كتب أغلب هؤلاء من الإشارة إلى تفرد القرآن الكريم والموازنة بينه وبين ما جاء به الشعراء والأدباء العرب، تنبيها على عظيم تفرده بلاغة وبيانا وفصاحة. ثم سرعان ما انفصلت الدراسات القرآنية عن النحوية، وعكف علماء الإعجاز يشرحون وجوه الإعجاز البلاغي، فكتب الرماني (ت 386ه) (النكت في إعجاز القرآن)، والخطابي (ت 388ه) (بيان إعجاز القرآن)، والباقلاني (ت372ه) (إعجاز القرآن). يقول محمد خلف في مقدمة تحقيقه لكتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني): "يمثل القرنان الرابع والخامس مرحلة خصبة في تاريخ الدراسات القرآنية والنقدية. ففيهما نضجت نظريات العلماء في إعجاز القرآن، وتحددت اتجاهاتهم ومنازعهم في الكشف عن أسرارهم".

وقد شكلت تلك الدراسات القرآنية رافدا مهما من روافد البلاغة والبلاغيين، إذ راحت تمدهم بالمواقف والرؤى، ويتجلى ذلك في كتاب ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) (سر الفصاحة)، وكتاب أبي هلال العسكري (الصناعتين)، ليلبع البحث النقدي والدرس الإعجازي أوجه مع الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

وهذا ما جعل البلاغة وكتب الإعجاز أكثر ارتباطا، فلا يمكن فهم تلك دون العودة إلى هذه، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن البحث في القرآن كان الدافع للبحث في الشعر واللغة، أو بمعنى أدق كان باعنا للبحث في لغة الشعر على وجه التحديد، ولأن القرآن له فضل في توجيه الحضارة العربية الإسلامية، وتكوين العقل العلمي واللغوي، وأيضا في تسيير الجهد النقدي والبحث البلاغي، وتربية ملكة النقد الأدبي وتهذيب الذوق عند العرب وتطوره، لاسيما وأن القاطع المشترك بينهما واحد وهو اللغة. فقد صار الشاهد القرآني هو الحكم الفصل بين فنون القول وأنماط الأساليب، وفي البحوث النقدية والدراسات الأدبية، ذلك أن القرآن معجز بألفاظه ومعانيه وأسلوبه، متميز بما جاء به من سبك وتركيب وتماسك وبيان ونظم، وحسن تأليف، والتئام أجزاء وفصاحة وبلاغة. يقول الطاهر حليس موضحا دور القرآن وفضله على الحركة العربية اللغوية والنقدية والبلاغية: "كان لنزول القرآن أثره في نهضة البلاغة وعلوم البيان عند العرب لما جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان، فدفعهم إلى الانشغال به ودراسته دراسة ميدانية كل حسب اهتماماته. فالمفسرون يتتبعون آياته، والفقهاء يستنبطون منه أحكام وأصول الشريعة، واللغويون يبحثون في الألفاظ العربية والمعربة، الغربية وغير الغربية، والنحويون يتتبعون أوجه الإعراب لآياته، والبلاغيون يستقصون بيانه وبديعه، والنقاد يتخذون من الشاهد القرآني النموذج المحتذى في الصياغة من حيث تلاؤم اللفظ مع المعنى".

قضايا النقد في كتب الإعجاز مهمة ومميزة، أنارت كثيرا من زوايا القراءات النقدية، وبسطت العديد من المفاهيم والأفكار، وعكست وجهات نظر مغايرة لتلك التي تميز بها النقد عموما. ومن القضايا والمفاهيم البلاغية التي ساهمت دراسات الإعجاز في بلورتها: البديع، السجع، البيان، النظم، اللفظ والمعنى.

يقول أبو محمد بن إبراهيم الخطابي (319/ 388هـ): "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني،" (الخطابي: بيان إعجاز القرآن، تح محمد خلف والدكتور محمد زغلول سلام، ص: 27). وقال: " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعته والصفة..."

مذهب البلاغة:

اهتم رجال هذا الاتجاه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم لاعتقادهم أن البلاغة القرآنية هي أساس الإعجاز، فقد درس ابن قتيبة الصور البيانية في القرآن الكريم وقال بالنتفاوت بين قصائد الشاعر الواحد، وبالنتفاوت بين الشعراء، غير ان القرآن الكريم غير متفاوت الإعجاز، وعلل هذا الإعجاز عن طريق البديع، وقد ألم برأيه هذا وبطريقته هذه في الدراسة في كتابه تأويل مشكل القرآن فبلاغة القرآن تعتمد على دقة التعبير والإجادة في الوصف بألفاظ قليلة وتوسع في الدلالة. فالقرآن الكريم معجز لأنه أجاد توظيف خصائص اللغة العربية ووصل بها إلى القمة التي تدرك من طرف البشر على الرغم من

تمتع العرب بحاسة بلاغية تجعلهم يميزون بين كلام الله تعالى وكلام البشر، إلا أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله.

أما **أبي الحسن علي بن عيسى الرماني** فقد قسم البلاغة ثلاث أقسام يقول: "فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس". وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ومنافر متكلف. وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ... والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان."

دراسة القرآن والإعجاز ومدى ارتباطه بالبيان عند عبد الرحمن ابن خلدون:

"واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه."

خلاصة:

وخلاصة القول هي أن مذهب النظم لقي رواجاً كبيراً وانتشاراً واسعاً باعتبار أنه يحقق الإعجاز في كل السور والآيات بينما مظاهر الإعجاز الأخرى لا تتحقق في كل

القرآن الكريم بينما ساهمت عملية البحث عن الإعجاز في تطور البلاغة كما ساهمت
البلاغة في تطور النقد.